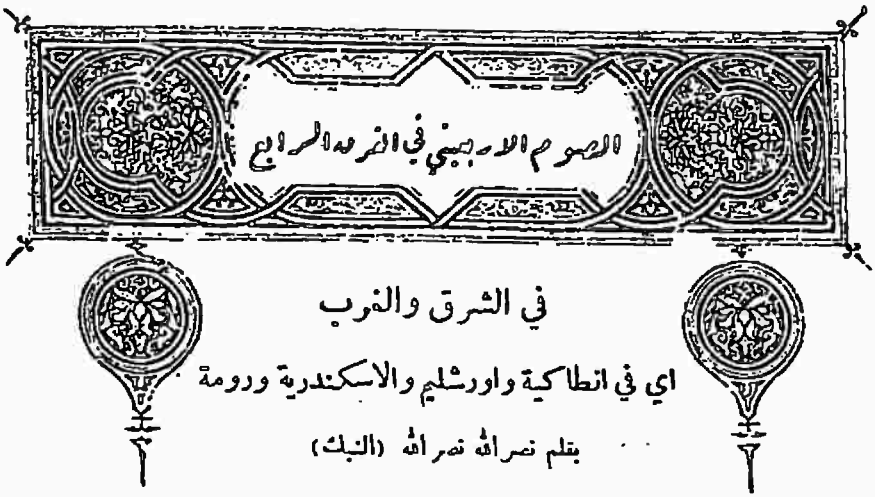

٢

ثانياً: مدة الصوم الاربعيني

كثيراً ما رددنا كلمة الصوم الاربعيني، وقد استعملناها بنوع غير دقيق. لان هذا الصوم كانت تختلف مدته باختلاف الكنائس . فعند البعض كانت ثلاثة اسابيع ، وعند غيرهم ستة ، او سبعة ، او ثمانية . ونرى عدة كتبة كنسيين في القرن الخامس يتعجبون من هذا الشذوذ . فهذا سقراط [1] يأخذه العجب من الكنائس اللواتي يمارسن الصوم ثلاثة اسابيع او خمسة عشر يوماً ، ومع ذلك يلقبنه بالاربعيني كالكنائس اللواتي كنا يصمن ستة او سبعة اسابيع . والقديس يوحنا فم الذهب هو ايضاً يستغرب مثل هذا التفاوت. اذاً فاننا نبذل منتهى الوسع في بيان عدد ايام الصوم في كل كنيسة ، فنشرع في البحث :

١- في انطاكية

في انطاكية ، والبلاد التي تخضع لارادتها ، كان يمتدّ الصوم الى سبعة اسابيع ، ستة اسابيع صوم اربعيني واسبوع صوم فصحي ، لانه في انطاكية كانوا يفرزون بين هذين الصومين لاسباب سنذكرها فيما بعد . ويتبين ذلك جلياً من كتابات الذهبي الفم، ومن كتاب (*Les Constitutions Apostoliques*) :

(١ H. E. V, 22.

فالاول، بعد ان تكلم عن نهاية الصوم الاربعيني: «ها قد بلغنا الى غاية الاربعينية المقدسة واتممنا سفر الصوم والحمد لله ادركنا المرفأ»، تابع قوله: «والآن وقد انتهينا الى الجمعة العظيمة يجب ان نضاعف إماتاتنا وتقشفاتنا»[1]

ويقول كتاب (*Les Constitutions Apostoliques*) «ليكن هذا الصوم (الصوم الاربعيني) قبل الصوم الفصحي... وعند نهاية هذا الصوم (الاربعيني) ابدأوا سنّة الفصح المقدسة وفيها ليصم الكل بخوف ورعدة»[2]

لكن الكنائس الخاضعة للكرسي الانطاكي، بل كنائس الشرق عموماً، كانت تصوم خمسة ايام فقط في الاسبوع. فجميع السبوت - خلا سبت النور - وكل الاحاد، لم يكن فيها صوم. ولنا على ذلك تصريحات بيّنة من كتابات في القرن الرابع لا بل قبله. فقوانين الرسل (*Canons Apostoliques*)[3] تمنع صوم السبت والاحد تحت العقاب، وزى المنع ذاته في «الدساتير الرسولية»[4]. و(*La Didascalie*) وهو كتاب لمؤلف سوري من النصف الثاني من القرن الثالث، يمنع الصوم كذلك «لان الذي يحزن نهار الاحد يرتكب اثماً.»[5] والقديس ابيفانيوس الذي يورد هذه النقرة[6] يقول في غير موضع[7]: «مما يضادّ العقل. والصواب صيام نهار الاحد.»

ويمكننا ان نضيف الى هذه التصريحات القانون الثامن عشر من مجمع گنگر (Gangres)[8]، وقول القديس يوحنا فم الذهب[9].

(١) *Homel. XXX in Gen.* 1, *P. G.* t. LIII, col. 273 — cf. encore *Homel. XX ad Popul. Antioch.*, *P. G.* t. XLIX, col. 9-10.

(٢) *Const. Apostol.* Lib. V, c. XIII ; Pitra, *op. cit.* p. 279.

(٣) *Canon* 66, Pitra, *op. cit.* p. 29.

(٤) Lib. V, cap. XV ; Pitra, *op. cit.* p. 284 — Liber VII. cap. 23 ; Pitra, *op. cit.* p. 361 — Lib. V, cap. X, 20 ; Pitra, *op. cit.* p. 294.

(٥) *Op. cit.* p. 123.

(٦) *P. G.* t. XLII, col. 361.

(٧) *Expositio Fidei*, XXII ; *P. G.* t. XLII, col. 828.

(٨) Cf. Pitra, *op. cit.* p. 491.

(٩) *Homel. XI in Gen.* 2 ; *P. G.* t. LIII, col. 92.

فاذاً في الكنيسة الانطاكية سبعة اسابيع صوم ، خمسة ايام في كل اسبوع ، ما عدا الاسبوع الاخير فستة . فيكون المجموع ستة وثلاثين يوماً .

٣ – في اورشليم

الكنيسة الاورشليمية كانت تريد ان تُبلغ الصوم اربعين يوماً اقتداء بالسيد المسيح ، وموسى ، وايليا ، اعظم انبياء اسرائيل . فلذا امتدّ الصوم الى ثمانية اسابيع لانه لم يكن يصام يومي السبت والاحد .

واجلى تصريح على ما نقول بيان السائحة اتيريا [1] وان القديس كيرلس الاورشليمي (*Procat.* n. 4., *Catéchèse*, 15) يعتبر زمن الصوم اربعين يوماً دون ان يشير الى عدد الاسابيع . وهذا هو الذي ورّط مفسّريه في الغلط . فظن توتّه (Tauttée) ان مدة الصوم اربعين يوماً مقسومة على ستة اسابيع (Migne, *P. G.* XXXIII, 155, 447) . وهذا رأي غير راجح لان التقليد الشرقي يمنع صوم الاحد والسبت ، ما عدا سبت النور .

وقد اوردنا نصوصاً كافية عن الكنيسة الانطاكية . فلنتكلم عن كنيسة اورشليم في هذا الشأن . فتصريح السائحة اتيريا الذي اوردناه جلي لا يفتقر الى مراجعة ، وهي تعود الى المعنى عينه في مؤلفها مرات عديدة [2] . فهكذا تقول ان الذبيحة تقام باكراً جداً نهار السبت حتى يفطر باقرب وقت الذين كانوا يصومون كل الاسبوع (هؤلاء المسيحيون كانوا يدعون Hebdomadiers) . وبلاديوس في كتابه « *Histoire Lausiaque* » [3] يخبر ان الناسك البيديوس ، الذي كان يفطر مفارة من ضواحي اريحا لم يكن يخفّف من صرامة تقشفاته الا يومي السبت والاحد . ويذكر لنا ايضاً في اورشليم عن الراهب ادولوس انه لم يكن يتناول طعاماً اثناء الصوم الا السبت والاحد .

فيتلخص مما تقدم ان عدد ايام الصوم في كنيسة اورشليم واحد واربعون

(١) Mgr. Duchesne, *op. cit.* p 478 — Cf. *Les Eglises de Jérusalem : la discipline et la liturgie au IV^e siècle*, par F. Cabrol n. 80.

(٢) Mgr. Duchesne, *op. cit* p. 480, 481.

(٣) Cf. *Histoire Lausiaque* par Butler, II. 142, 18.

يوماً. لكن كنيسة اورشليم، حسب قول المؤرخ سوزومين، لم تستمرّ على هذه العادة، فيخبرنا انها في القرن الخامس انقصت صومها الى ستة اسابيع [1]. وقد استمرّت على هذه العادة حتى القرن السادس حيا اوقفنا بطريركها بطرس (٥٢٤-٥٤٤) [2]. ولكن على رأي دورثاوس، الذي عاش في القرن الثامن ان الصوم في عهده كان ثمانية اسابيع [3].

٣ - في الاسكندرية

لم يكن الصوم في كنيسة الاسكندرية يزيد عن ستة اسابيع، يشمل الصوم الاربعيني والصوم الفصحي. يقر بذلك، في القرن الخامس سقراط [4] وسوزومين [5]. ولكن اذا عوّلنا على كتاب القرن الخامس وعلى الادلة المستخرجة من رسائل القديس اثناسيوس الفصحية [6]، نرى ان قد طرأ على الصوم تبديلات في القرن الرابع. واليك ملخص هذه الرسائل عن العلامة دوشين [7]:

في الاولى منها (سنة ٣٢٩) لا يُذكر الا التهيئة لعيد الفصح بنوع عام دون اشارة البتة الى الاربعينية، ويحدّد ابتداء الصوم يوم الاثنين العظيم. وسنة ٣٣٠ تُذكر الاربعينية التي مدتها ستة اسابيع. لكن الصوم الاتم والاكمل هو صوم الاسبوع العظيم. ومما يتبادر الى الفهم انه في الاربعينية المقدسة كان الصوم في مقدمة الاعمال الاعدادية لعيد الفصح. ولكنه لا يذكر كفرض يستلزم الخجازه، ولا كعادة مألوفة عند الجميع. وسواد الشعب الاسكندري كانوا يقصرونه على صوم السبة العظيمة فقط. وفي مدة اقامته في رومية، سنة ٣٤٠ وما يليها، قُرّع القديس اثناسيوس بتراخي رعيته، فشكا من ذلك في رسالة له وجيزة ضمن رسالته الفصحية لسنة ٣٤١ مؤرخة من رومة، وهي موجهة الى صديقه

---

(١) *H. E.* VII, 19 ; *P. G.* t. LXVII, col. 1477.

(٢) *P. G.* t. XCV, col. 71-88.

(٣) *P. G.* t. LXXXVIII, col. 1788, c.

(٤) *H. E.* V, 22 (٥) *H. E.* VII, 19.

(٦) Cf. *P. G.* t. XXVI, col. 1360.

(٧) Mgr. Duchesne, *op. cit.* p. 232, note 1.

سرابيون اسقف (Thumis) الذي كان مفوّضاً ، نيابة عن البطريرك القديس ، بالادارة العليا لكنائس القطر المصري . وسأله بالحاح ان يحثّ المصريين على قضاء فريضة الصوم كاملةً قائلًا انهم يحطون النير ان يسخروا بهم . ومنذئذٍ اخذ يذكر ، على نوع قانوني ، صوم الاربعينية مع صوم الجمعة المقدسة ، بينما كان يكتب في رسائله السابقة « وقت الصوم » (عن الاربعينية) و« اسبوع الصوم » (عن الجمعة المقدسة) . وفي رسالته الفصحية ، لسنة ٣٩٧ ، يقرّر بنوع واضح ان الذي يسخر بفريضة الصوم لا يحتفل بالفصح ، اي يكون محروماً الى حين ما.

فيلخص مما تقدم ان مسيحيي الاسكندرية كانوا يصومون في منتصف القرن الرابع الستة اسابيع . والحال اننا نتيقن من كتابات القديس اثناسيوس[1] ان رعية الاسكندرية كانت لا تصوم السبت ولا الاحد[2] . فاذًا ايام الصوم لا تزيد على واحد وثلاثين يوماً ان ضممنا اليها سبت النور . وشهادة القديس اثناسيوس صريحة في ذلك : « فاذًا يبتدئ الصوم الاربعيني في اليوم الثالث عشر من Chaménoth . والاسبوع الفصحي المقدس يبتدئ في ١٨ من Charmuthi . واخيرًا ينتهي الصوم نهار السبت ٢٣ من هذا الشهر . فاذًا الاحد العظيم يقع في ٢٤ من الشهر Charmuthi هذا »[3] .

٤ – في رومية

ليس لدينا شهادة كافية عن الصوم الاربعيني في القرن الرابع في هذه

١) Cf. *P. G.* t. XXVI. col. 1389. وكذلك قانون القديس انطونيوس يمنع عن صوم السبت والاحد Cf. Dict. Archeol. et Liturg. art. *Fêtes Chrétiennes* par Cabrol, col. 1410.

٢) راجع Deconinck في المجلة الكتابية سنة ١٩١٠ صحيفة ٤٣٥ فترى انا اذا ركنّا الى M. Achelis ، رأينا القديس اثناسيوس يطلب ان يتناول الصوم السبت والاحد ما عدا احد القديسين . ونحن لا ندري اعول على شيء في زعمه ام هل هذا لكي يبلغ عدد الاربعين كاملًا فيصحح كلمة الاربعينية التي كان يشير اليها القديس اثناسيوس مرارًا . و Deconinck يقول ان هذا الكاتب يرجع بالقارئ الى ترجمة المانية لرسائل الفصحية ، ويزيد : « ليس بين يدي سوى ترجمة Mai » (Migne t. XXVI) ولا اجد فيها هذا المصدر وقد لا تكون ترجمة اي صحيحة لانها منقولة من السريانية الى اللاتينية بواسطة الايطالية .

٣) Cf. Lettres Festales, *P. G.* XXVI, col. 1418 — *P. G.* t. XXVI, col. 1389

الكنيسة . لكننا نستطيع القول ان الصوم الذي كان يمارس في كنيسة الاسكندرية كان ولاشك في الكنيسة الرومانية . لاننا نرى القديس اثناسيوس ، ابان اقامته فيها ، يفرض على شعبه صوم ستة اسابيع . فيسوغ لنا ان نستنتج ان القديس اثناسيوس وضع على شعبه ما كان مستعملاً عند الرومانيين ، لكنه جعله ملائماً للعوائد الشرقية . نقول هذا لا عن يقين وتحقيق بل على سبيل الترجيح . وهذا الرأي ، وان لم يكن جازماً ، لا يخلو من قوة كما يظهر من كتابات القديس لاون في القرن الخامس اذ يقول : « ان صوم اربعين يوماً يتقدم عيد الفصح »[1] . ويقول فاكندار (Vacandard)[2] ان شهادة القديس لاون لها قيمتها التاريخية في سنة ٤٠٠ ويتابع قوله : « ان الاربعين التي يتكلم عنها القديس لاون يجب ان لا تُفهم بمعناها الحرفي ، لكن بمعنى تقريبي ، لان شريعة الصوم لم تكن مرعية ايام الاحاد » . اذاً الصوم في مدينة رومية كان ستة وثلاثين يوماً كما هو في الكنيسة الانطاكية ، لكن مع هذا الفرق انه في انطاكية كان يبلغ السبعة اسابيع اما في رومية فستة .

غير ان سقراط ، بفقرة من تأريخه الكنسي[3] ، يضع امامنا صعوبتين بخصوص الصوم في الكنيسة الرومانية : الصعوبة الاولى قوله انه لم يكن صوم ايامَ السبوت . وهنا نستطيع القول ان المؤرخ اليوناني عزا الى الكنيسة الرومانية ما كان جارياً في كنيسة القسطنطينية وعامة الشرق المسيحي . ولنا على ذلك شهادات صريحة من القرنين الرابع والخامس تبطل ادعاءه .

ففي القرن الثالث ، يقول ترتليانوس ان النفسانيين (psychiques) (ويعني بذلك كاثوليكي رومية) كانوا يحلون الصوم — وهذا ما يعبّر عنه ترتليانوس باللاتينية (*continuare jejunium*) — نهاري الجمعة والسبت[4] . والقديس

---

(١) *Homel. VII, de Quadragesimo*, 1 ; *P. L.* t. LIV.

(٢) Dict. Théol. Cath. *loc. cit.* col. 1730.

(٣) *H. E.* V 22, *P. G.* LXVII, col. 634.

(٤) *De Jejunio* c. XXV ; *P. L.* t. II. col 973.

اوغسطينوس يقول[1]: «ان صوم السبت كان قليل الانتشار في الكنيسة، لكنه خاصّ بالكنيسة الرومانية». والقديس امبروسيوس لم يكن يصوم السبت في ميلانو (لان هذه المدينة قد تبعت العوائد الشرقية في اسقفية Auxence سلف القديس امبروسيوس) لكنه عند حضوره الى رومية كان يصوم اليوم المذكور[2].

---

١) *Epist.* XXXVI, *ad Casulanum* ; *P. L.* t. XXXIII, col. 136 ; Cf. encore *Epist.* LIV, *P.L.* t. XXXIII, col. 199 sq. ; *Epist.* LV, *P.L.* t. XXXIII, col. 204

٢) يجب ان نتقّب عن اصل هذا الاختلاف في صيام السبوت في الكنيسة الرومانية والامتناع عنه في الكنائس الشرقية، في كيفية فهم السبت عند الشرقيين والرومانيين.

ففي الترب، وخصوصاً في الكنيسة الرومانية، كان هذا اليوم يُعتبر كسائر ايام الاسبوع فيماثل معاملتها. اما عند الشرقيين فالسبت كانت تعتبر متزلته على نوع ما كيوم الاحد كما يظهر من قوانين الرسل («Canons Apostoliques» : canon 66°) ومن كتاب «دساتير الرسل» (Lib. II, 59 ; L. VII, c. 36 ; L. VIII 33)

وهكذا نرى عملياً ان الكنائس الشرقية تقيم ايام السبوت الاحتفالات التي هي خاصة بالاعياد والآحاد ففي القطر المصري لم تكن تقام الذبيحة — ما عدا الاعياد — الا السبت والاحد. وهذه العادة كانت جارية عند رهبان طيبة (Thébaïde) وسِتي (Scété) ونِيتري (Nitrie) (Cf. Cassien, *Institut. L.* III, c. II ; *P. L.* t. XLIX, col. 115.)

وكذلك في انطاكية، على عهد الذهبي الفم، لم تكن تُقام الذبيحة الا السبت والاحد واعياد الشهداء. (Cf. *P. G.* t. XLVIII, col. 753, sq.)

ومجمع اللاذقية لا يسمح ايام الصوم باقامة الذبيحة وتذكار القديسين الا السبت والاحد (canons 49° et 51°). والقديس سابا الذي كان يمارس الصوم في عزلة عن ديره من النطاس حتى الفصح لم يكن يتناول سوى السبت والاحد.

والكنيسة البوناية، في قوانينها المرعيّة، قد حفظت هذا الرسم للسبت. فما عدا انه لا يُصام فيه، لا تُقام الذبيحة الالهية قانونياً في غضون الصيام الا السبت والاحد. اما بقية الايام فتُقام خدمة البروجيز مينا (Messe des Présanctifiés).

وهنا يتبادر الى الخاطر هذا السؤال: ما سبب احترام الشرقيين لنهار السبت؟ فكتاب «الدساتير الرسولية» في عدة نصوص (L. VII, cap. 23 ; Pitra, *op. cit.* p. 361 ; Lib. V, cap. 15 ; Pitra, *op. cit.* p. 285) يشير الى هذا السبب اي ان احترام السبت مبني على اجلالنا لراحة الله فيه بعد خلق العالم. فمن هذه النصوص يتبين ان الرأي الذي يعزو الامتناع (Cf. Pitra, *op. cit.* p. 421 ; Migne *P. G.* t. CXXXVII, col. 169, note 95) عن الصوم ضار السبت الى الاحتجاج على المركيونيين تبدو لنا ارجحيته. فمركيون (Marcion) يدّعي ان اله الانجيل الصالح هو عدو اله العهد القديم العادل (الاله الخالق).

والصعوبة الثانية التي يضعها سقراط هي ان الرومانيين لم يصوموا الا الثلاثة الاسابيع الاخيرة قبل الفصح. ويمكننا القول مع ڤاكندار ان هذا القول لا يخلو من خطأ (Dict. Théol. Cath *art. Carême*, col. 1730). ويقول العلّامة دوشين عن هذه الفقرة: «لكن هذا النص يلقي في ذهني بعض الريب لانه يقال فيه ان في هذه الاسابيع الثلاثة لم يكونوا يصومون لا السبوت ولا الآحاد، وذلك شيء لا يتفق مع العوائد الرومانية.»[1]

* * *

يتبين جلياً مما ذكرنا انه لم يكن اجماع تام في عدد ايام الصوم الاربعيني في الكنائس المختلفة، مع اننا نجد كلمة «اربعينية» (*quadragesima*) متداولة فيها، فالاتفاق لا نجده الا في القرون التالية، وهو اتفاق كان يتصل على اربعين يوماً اقتداء بصوم المخلص في البرية[2].

ولهذا يجب علينا ان نناوئ اله العهد القديم الخالق والعادل بترفعنا عن اشياء المادية. ولكي يقاوم هذا الاله الخالق الذي ابدع العالم في ستة ايام واستراح في اليوم السابع آمرًا شعبه الخاصّ بتقديس هذا اليوم، اوجب مركيون على تلاميذه ان يصوموا هذا النهار (Cf. S' Epiph. *Haeres.* XLII, 3. ; Tertullien, *adv. Marcionem*, IV, 12)

فيحيو الشرق، مناهضةً لآراء مركيون الفاسدة، قد اعتبروا السبت كالاحد ورفضوا عنه فريضة الصوم.

وبعكس ذلك اتخذت رومية، حيث لم تنتشر تعاليم مركيون، فحدّدت ان يُصام السبت لكي تنفصل الكنيسة اكثر فاكثر عن الجماعة اليهودية ويجلّوا قبر المسيح ويتعبدوا ليوم الرب.

(١ *Origines du Culte Chrétien*, p 233, note 1.

(٢ Cf. Mgr Duchesne. *op. cit.* p. 233-234.

(لها بقية)